

الزانية القديسة ومعجزة التوبة

الراهب موسى الأثوسي نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

منذ ألف وأربعمئة عام مضت، في مكان ما في الإسكندرية بمصر، كان هناك فتاة بالكاد تبلغ اثني عشر عاماً، وقعت في شباك الزنى. لقد بذلت جسدها ونفسها للسقوط والخطيئة والفساد. عبادة الجسد واللذة الجامحة والشهوة التي لا تشبع سيطرت عليها منذ الصغر. لمدة سبعة عشر عاماً عاشت هذه الحياة بشغف دون موانع أو خجل أو شكوك أو ذنب أو ندم. لقد اعتبرت نفسها حرة ومستقلة لا تُضبط ولا تُقاوم. كانت مُعجبة بجمالها وثرواتها ومفاتها وإثارتها. جرى أمر رائع في أورشليم حيث أنها لم تستطع دخول الكنيسة، وهذا ما حملها على أن تركع، أن تبكي، وأن تتذكر براءة طفولتها. بدأت بالبكاء. بدأت تغيير توجهها. مُحبّة الجسد صارت فجأة مُحبّة لله. راحت تتبدّل، راح قناعها يسقط، بدأت تحبّ ما هو جميل، وبدأت تقوم. بعد هذا التحول الوجودي غير المُتوقّع، سيطر على قلبها العشق الإلهي. اكتسبت حياتها معنى عميقاً. إنها بطلة، شهيدة وبارة. انطلقت إلى البرية، خلف الأردن، بتصميمٍ وبلا كلل. كانت أفكارها تعود إلى حياتها السابقة ولا تتركها تراح ولا لدقيقة. لسبعة عشر عاماً استبدّت بها الأفكار العنيفة والبذيئة. على عدد السنين التي عاشتها في الخطيئة. كاد اليأس أن يملكها. صارت كهيكل عظمي من الصوم. كمثل وحش كانت تدور في الصحراء. صارت الصحراء القاحلة والأرض الغريبة والصخور والكهوف مساكن لها. لثلاث وعشرين سنة أخرى عاشت من دون حرب أفكارها الرهيبة. لقد ذلت أفكارها. الزانية الذائعة الصيت صارت أعظم ناسكة في كل العصور.

خرج الأب زوسيم في رحلة أحد الأصوام إلى داخل البرية ورأى ظلاً يتجول. عندما وجد أنها امرأة غطي عريها بقطعة قماش وعرف منها بتأثير عن حياتها الجديرة بالاحترام. عاد ليناولها. ثم بعد سنة وجدها ميتة. كانت قد دوّنت على حجر أنها رقدت مباشرة بعد أن تناولت.

ليست الخطيئة مجرد انتهاك للناموس، بل هي غياب محبة الله. الخطيئة دائماً تبدو جميلة جداً، جذابة جداً ومغرية. إنها تأسر الفكر الذي يقبلها ويصير ملتزماً بها. غالباً ما تفرغ الخطيئة النفس من صفائها المبارك. فالعتمة التي تسبق الخطيئة تنقش عند ارتكابها، فيرى الإنسان عريه ويتعذب، ويشعر بالندم والتبكي. ويتدخل الشيطان لكي يصاب الإنسان بالخيبة ولا يطلب التوبة.

وصّف محلل النفس الكبير، القديس يوحنا السلمي، بوضوحٍ مذهلٍ مراحل الخطيئة: الانقضاض، التفاعل، الموافقة، الأسر، المجاهدة والهوى. يصبح الهوى عادةً أيها الأحباء، ويدفع الإنسان لسنوات طويلة إلى الانجراف دون أن يواجه مقاومة. الخطيئة تظلم الإنسان. اليوم يُنظر إليها بلا مبالاة، إذ قد أصبحت هي القاعدة، لأن الناس يعتقدون أنهم يفعلون ما يريدون وأنهم أحرار. بغض النظر عن نوع القانون القائم، فإن الخطيئة لا تتوقف عن كونها خطيئة وتزعج كل شخص شريف وجاد وذو ضمير حي.

لقد وصلنا إلى النقطة التي نسمي فيها ما هو غير طبيعي بأنه طبيعي، وهذا تفاهة منطقية. إن نتائج الخطيئة هي: التغرّب والعزلة والفراغ والوحدة واليأس ووجع القلب. القديسة مريم تساعد بحنانٍ في تغيير الجميع. لقد فشلت كزانية وانتصرت كناسكة. إنها امرأة شديدة الشجاعة. ملهمة. إنها تؤازر الخطاة. لا تخافوا من الكلمات، بل من الأفعال التي تنتزع السلام. يقترب الصوم من نهايته، وتحثنا مريم الإسكندرية على الماضي قدماً دون خوف. إنها تحفّزنا على إعادة التركيز وتخبرنا سرياً أنه حتى العاهرات يمكن أن يصبحن قديسات.

Source: Monk Moses the Athonite. The Holy Harlot and the Miracle of Repentance. Newspaper Macedonia.

Translated by John Sanidopoulos. Orthodox Christianity Then and Now.

<https://www.johnsanidopoulos.com/2015/03/the-holy-harlot-and-miracle-of.html>